

الشارقة - محمد اسماعيل زاهر :

توفي أمس الأول المؤرخ المصري والمفكر القومي البارز الدكتور رؤوف عباس بعد صراع مع المرض عن عمر يناهز السابعة والستين، وتبرز مذكراته التي صدرت منذ سنوات عدة تحت عنوان "مشيناها خطي" حجم المعاناة التي لقيها في حياته حيث يقول انه ولد لأسرة فقيرة شأنها شأن السواد الأعظم من المصريين عندئذ حيث كان والده عاملاً في السكة الحديد يشغل أدنى درجات السلم الوظيفي للعمال وكان جده لأبيه عاملاً أيضاً في السكة الحديد.

نزع من قريته "جرجا" في صعيد مصر إلى مدينة بورسعيد، وعن والدته يقول إنها بورسعيدية من أصول مياطية يعمل والدها بحاراً يبيع التذكارات الشرقية على ظهر قارب بجوار السفن عند دخولها القناة.

وتحفل المذكرات أيضاً بلحظات ألم ويأس تعرض لها عباس كادت تدفعه للتوقف عن الدراسة، ولكنه استطاع عبر التحمل والمثابرة أن يواصل تعليمه العالي ويعمل في بعض المهن البسيطة حتى تم تعيينه في شركة قطاع عام تنتج حامض الكبريتيك وسماد السوبر فوسفات واستمر بالعمل فيها مدة خمس سنوات استطاع خلالها الاقتراب من العمال وجعل حياتهم موضوعاً لرسائله للماجستير عن الحركة العمالية وتاريخ الحركة النقابية في مصر ونوقشت رسالته في نوفمبر/تشرين الثاني 1966.

وفي عام 1971 يحصل عباس على درجة الدكتوراه في التاريخ الحديث بمرتبة الشرف الأولى ليعمل أستاذاً في قسم التاريخ في كلية الآداب جامعة القاهرة وفي ابريل/نيسان 1972 يسافر إلى طوكيو في مهمة علمية ني معهد اقتصاديات الدول النامية، وكانت هذه المهمة انقلاباً في حياته العلمية ففضلاً عن اسهامها في تكوينه المنهجي وفي دراسة التاريخ المقارن وتعمقه في دراسة تاريخ اليابان في القرن التاسع عشر، فقد اكتسبه مهارات بحثية جديدة ومنحته آفاقاً أخرى حيث استثمر تلك الفترة في ترجمة كتاب "يوميات هيروشيما" وتأليف كتاب آخر بعنوان "المجتمع الياباني في عصر مايجي" أصدره في حقبة التسعينات من القرن العشرين حينما احتدم الجدل في ساحة الثقافة العربية حول المقارنة بين مشروع محمد علي النهضوي واليابان في القرن التاسع عشر.

إن البحث في الخلفية التكوينية لعباس تظهر للباحث في سيرته جذور التوجه القومي الواضح في كتاباته وأرانه منها النشأة في الحقبة القومية والسفر إلى بلاد تقع في الشرق الأقصى ولا تنتمي إلى الرؤية الفكرية والحضارية للمركزية الأوروبية، ولذلك نجده يشرف على ترجمة كتابين للمؤرخ اليساري الأمريكي "بيترجران" وهما "الجذور الإسلامية للرأسمالية، مصر خلال القرن الثامن عشر" و"ما بعد المركزية الأوروبية" يتناول الأول فكرة جديدة تؤكد أن حملة نابليون أجهضت نواة نهضة حملتها شرائح برجوازية مصرية تكونت في القرنين السابع عشر والثامن عشر بينما يرصد الآخر كيف صاغ الغرب رؤية مركزية للعالم تنطلق من تاريخه وأفكاره وفلسفته ورواه.

ويقول رؤوف عباس في تقديمه لترجمة كتاب "أين الخطأ؟" لبرنارد لويس "كتاب برنارد لويس ليس فيه جديد سوى عنوانه وهي مهارة انفراد بها، فهو يصوغ مقولاته الأساسية مستخدماً المادة نفسها التي اشتغل عليها في كتب سابقة مثل الإسلام والغرب، واكتشاف المسلمين لأوروبا واللغة السياسية للإسلام، فكتابات لويس عن تاريخ وثقافة وسياسات الشرق الأوسط محملة بأجندة ايديولوجية تجمع بين المركزية الأوروبية الصهيونية ما جعلها وصاحبها مثاراً للجدل على ما يزيد على الثلاثين عاماً.

ومنذ أعوام قليلة اتهمه المؤرخ الأمريكي اليهودي جونيل بينين بمعاداة السامية وثار جدل واسع حول هذه المسألة في الصحافة المصرية، فهو رفض الإشراف على ترجمة كتاب بينين "شتات اليهود المصريين"

واعتبره لا يتسم بالموضوعية في رؤيته لموقف مصر الناصرية من اليهود المصريين ما دفع بينين لاتهم عباس بمعاداة السامية، الأمر الذي أثر في الوسط الثقافي في مصر وجعل وزارة الثقافة تتوقف عن ترجمة الكتاب.

وقدم عباس على مدى أربعين عاماً من العمل البحثي والفكري كتباً بارزة منها "الحركة العمالية في مصر" و"النظام الاجتماعي في مصر في ظل الملكيات الكبيرة" و"مذكرات محمد فريد" و"جماعية النهضة القومية" و"أربعون عاماً على ثورة يوليو.. دراسة تاريخية" و"حرب السويس بعد أربعين عاماً" وغيرها، يتولى العديد من المناصب منها رئيس اللجنة العلمية لدار الوثائق القومية فضلاً عن إشرافه على مركز تاريخ مصر المعاصر التابع لدار الكتب المصرية، وترأس وحدة الدراسات التاريخية في مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية قبل أن يتم اختياره رئيساً لمجلس إدارة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية منذ العام 1999 وحتى وفاته.

<http://www.alkhaleej.ae/portal/24be6bab-88b8-4298-b9dd-93676df057da.aspx>